ابن خلدون ومكيافيللي (١)

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن ، وضع نيكولو مكيافيللي المؤرخ والسياسي الايطالي (٢) كتابا يتبوأ في التفكير الغربي مكانة كتلك التي تتبوأها مقدمة ابن خلدون في التفكير الاسلامي . ذلك هو كتاب « الامير » Ilprincipe ، وهو كأثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير السياسي والاجتماعي . تمتاز بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق . واذا لم يك بين الأثرين كثير من أوجه الشبه المادي ، فان بينهما كثيرا من أوجه الشبه المعنوي ، وبين الذهنين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التي تكون كل فيها ، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الاجتماعية ، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ .

ونستطيع أن نرجع كثيرا من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين العظيمين الى تماثل عجيب في العصر والظروف السياسية والاجتماعية التي عاش كل منهما فيها . فقد كانت الامارات والجمهوريات الايطالية التي عاش مكيافيللي في ظلها تعرض في ايطاليا نفس الصور والاوضاع السياسية التي تعرضها الممالك المغربية ايام ابن خلدون ، من حيث اضطرام المنافسات والخصومات فيما بينها ، وطموح كل منها الى افتتاح الاخرى ، وتقلب اماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين . وقد اتصل مكيافيللي بهذه الدول ، وقضى عصرا في خدمة احداها وهي وطنه فلورنسا (فيرنتزا) وانتدب لمهام ساسية مختلفة ؛ واستطاع ان يدرس عن كثب كثيرا من الحوادث والتطورات السياسية التي تعاقبت في عصره ، وان يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير ، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التي عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقا من المفكر الايطالي . ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وان يعللها على ضوء التاريخ ، وان يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . ولكن مكيافيللي يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعا معينة من الدول ، هي التي يعرضها التاريخ اليوناني والروماني القديم ، وتاريخ ايطاليا في عصره ، ويدرس شخصية الأمير أو المتغلب الذي يحكم الدولة ، وما يلحق بها من الخلال الحسنة أو السيئة ، وما يعرض لها من وسائل الحكم . وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءا صغيرا فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، هو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهو الذي يدرس فيه احوال الدول العامة والملك والمراتب السلطانية . وحتى في هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على مكيافيللي تفوقا عظيما . ويبتدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية اعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الاجتماعية وان كان مكيافللي من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون في سلاسة المنطق ، ودقة العرض والتدليل ، ورواء الاسلوب .

كتب مكيافيللي كتابه « الأمير » سنة ١٥١٣ واهداه الى لورنزو دي مديتشي « الافخم » أمير فلورنسا ، وهو يشير الى غرضه من وضع كتابه في قوله للأمير في خطاب الاهداء : « ومع اني اعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك ، فاني اعتمد جل الاعتماد على عطفك ورقتك في قبوله ، فلست استطيع في اهدائك خيرا من أن اقدم اليك فرصة لتفهم في اقصر الاوقات كل ما عرفته خلال أعوام طويله ، وفي غمار من المتاعب والاخطار » وفي قوله : « فتناول ياذا الفخامة هذه الهدية الصغيرة بنفس الروح الذي

---

(١) من كتابه ذكرى ابن خلدون وسيصدر قريبا

(٢) نيكولو مكيافيللي Nicolo Machiavelli كاتب ومؤرخ وسياسي ايطالي كبير ، ولد سنة ١٤٦٩ بمدينة فلورنسا وتوفي بها سنة ١٥٢٧ واشتغل حينا سكرتيرا للسياسة الخارجية في حكومة فلورنسا . وكلف بعدة مهام سياسية في ايطاليا وفرنسا والمانيا ، ولما عاد آل مديتشي لحكم فلورنسا سنة ١٥١٢ ، قبض عليه بتهمة التآمر وعذب ثم افرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر . وعندئذ اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه « الامير » وتاريخ فلورنسا . ومقالات عن ليفي المؤرخ الروماني ؛ وعدة رسائل سياسية وقطع مسرحية

أرسلها به ، وإنك اذا قرأته بامعان وتأمل ، فسوف تعرف خالص رغبتي فان تظفر بهذه العظمة التي يمني بها حسن الطالع وتمنى بها خلالك » (١) واذن فقد اراد مكيافيللي أن يقدم بكتابه «الأمير» مرشدا لامراء عصره يرشدهم الى امثل طرق الحكم ، وامثل الوسائل لسيادة الشعوب التي يحكمونها . ومكيافيللي يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم ، وبالاخص من حوادث عصره التي شهدها وخبرها ، ويرتب عليها احكاما وقواعد عامة ، كما يرتب ابن خلدون مثل هذه الاحكام والقواعد على دراسته للمجتمع . ويبسط مكيافيللي دراسته في بحوث موجزة ويبدأ بالحديث عن أنواع الامارات ، ووسائل اكتسابها ، وعن الوسائل التي تحكم بها المدن او الامارات التي كانت تعيش في ظل قوانينها قبل ان تغلب ، وعن الامارات التي تقوم بالفتح وكفايات الامير الشخصية ، وعن تلك التي تغنم على يد آخرين او بطريق الحظ ، او تلك التي تغنم بالغدر والخيانة ، وعن الامارات المدنية والدينية ، وعن انواع الجيوش والجنود المرتزقة ، وما يجب ان يعرفه الامير عن فن الحرب . ثم يتناول بعد ذلك شخصية الامير ، وما يحمد فيه من الخلال وما يذم ، وعن الكرم والشح ، والرأفة والقسوة وعن الطريقة التي يجب ان يحفظ بها الامراء وعودهم ، وعما يجب عليهم لتجنب بغض الشعب واحتقاره ، وما يجب عليهم لاكتساب الشهرة ، والمجد ، وأخيرا يتحدث عن حجاب الامير «سكرتارية» وعن وجوب تجنب الملق ، وعن الاسباب التي فقد بها أمراء ايطاليا دولهم ، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع في سير الشئون البشرية ، ثم يختتم بالحث على تحرير ايطاليا من نير الاجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم

تلك هي المباحث التي جعلها مكيافيللي قوام فلسفته عن الدولة والأمير . ويبدو بالاخص مما كتبه عن «الامير» انه يعالج موضوعا عالجه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، هو موضوع « السياسة الملكية » وهو موضوع يجري منذ القرن الثالث الهجري في التفكير الاسلامي مع بحث أو علم خاص هو علم السياسة على نحو ما بينا في فصل سابق . وقد رأينا مما تقدم أن « السياسة » كانت تفهم عند العرب في العصور الاولى بمعنى ضيق جدا هو شرح الخلال الحسنة التي يجب أن يتصف بها الامير ، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يصلح لرآسة الدولة وتبوء الملك ؛ ولكي يستطيع الحكم باهلية وكفاية . ثم توسع المفكرون المسلمون في فهم معنى «السياسة» وقسموها الى عدة أنواع ، وتناولوا

(١) كتاب الامير The Prince - الترجمة الانجليزية طبعة افريمان ص ٢ و ٣

«السياسة الملكية» من الناحية الفقهية وكذا من الناحية الادارية وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية وتحدثوا عن الخطط السلطانية . وظاهر ما يتناوله المفكر الايطالي من خواص الأمير وخلاله وواجباته هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري . من ذلك ما كتبه ابن قتيبة في كتاب «عيون الاخبار» والماوردي في كتاب «الاحكام السلطانية» والطرطوشي في كتاب «سراج الملوك» والغزالي في كتاب «التبر المسبوك» ، ثم ابن الطقطقي في كتاب «الآداب السلطانية» . وهو موضوع تناوله ابن خلدون فيما تناوله من أحوال الدول العامة والملك ، اذ يتحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الخلافة والامامة ، وعن مختلف المذاهب والآراء في حكم الامامة ثم عن الخطط السلطانية (١) ، وحديثه في ذلك يمتاز عن حديث اسلافه بما يتخلل بحثه وتدليله من الملاحظات والتأملات الاجتماعية التي لم يوفق اليها باحث قبله

على أن مكيافيللي يمتاز في بحثه بروح عملية جافة . وبينما يتحدث المفكرون المسلمون عن الامير أو الحاكم كما يجب أن يكون ، وعن خلاله المثلى كما يجب أن تكون ، اذا بالمفكر الايطالي ينظر الى الامير الأمثل نظرة عملية محضة . فيصفه كما هو في الواقع ، ويتصور خلاله المثلى فيما هو حادث بالفعل ، ويرتب تدليله ونتائجه على ما احرز الامير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل دون تأثر بما اذا كانت هذه الصور والخلال تتفق مع مبادىء الاخلاق المثلى كما فهمت خلال العصور . ومن هنا تستمد فلسفة مكيافيللي لونها القاتم ، وتوصم آراؤه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التي جعلتها حتى عصرنا مضرب الامثال للسياسة الغادرة التي لا ضمير لها ولا وازع ، والتي جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الانسانية والاخلاقية . والى القارىء بعض نماذج من تلك الآراء التي طبعت فلسفة مكيافيللي ، وأميره الامثل بذلك الطابع الاسود :

يتبع

(١) راجع المقدمة ص ١٥٦ و ١٥٨ الى نهاية الباب

يصدر قريباً

ذكرى ابن خلدون

عرض نقدي لحياته
وتراثه الفكري والاجتماعي
ومكانة تفكيره من النقد الحديث

بقلم

الاستاذ محمد عبدالله عنان